

فصل فى إجلال وإكرام بيت الله الحرام .. وبيان جميع أحواله

أولاً ؛ إن الحقير إلى ربه أولياً منذ أن وعي الدنيا ، وشب عن الطوق وأصبح فى عمر الشباب ، وهو يتمنى من كل قلبه ، وروحه أن يكون مولعاً بالسياحة ، وطالباً للرحلة ؛ وأنه كلما أمعنت النظر فيما ترى عيناي ازدادت رغبتى فى ذلك ، وأكون طوعاً للمكان .. وأظل محبوس الفؤاد بالبلاد التى نزلت قدماي بها . وأمعن النظر فى سمائها ، لأرى نجومها السَّيَّارة ، وأشاهد بروجها برجاً ، برجاً .. وأقطع لذلك المنازل وأطوى المراحل . وأسابق رياح الصبا فى قطع الديار حتى أصل إلى موطن الحبيب المصطفى .. وقد قضيت وقتاً طويلاً أحياناً فى الذكر ، وأحياناً فى قراءة المدائح النبوية ، وأحياناً فى تلاوة القرآن الكريم .. وأحياناً فى السير والمشاهدة ، والتطلع إلى كل ما يقابلنى فى المدن العظيمة ، والقلاع القديمة .. وأعبر الأنهار ، واتخطى الجبال والوديان وكنت كلما تواتبنى الفرصة أرجع إلى علم الهيئة = « الفلك » وكتب الأطالس الجغرافية .. وأبذل الهمة فى تدوين ما رأيت ، وتوثيق ما كتبت ؛ وأتخذ من همة الأوائل نبراساً أهدى به ... وتوفيق من الله سبحانه وتعالى أتممت الحج فى سنة ١٠٨٢ هـ وطففت ببيت الله العتيق .. وإلتزمت - بعد الإطلاع على بعض الكتب المعتمدة ، وأوصاف مكة المكرمة ، - أن أدون بعض من أحوال مكة ، وتجرات على ذلك بعون الله .. وبالله التوفيق .

أولاً ؛ خلق الله السموات والأرض من العدم يلفظ « كن » فيكون ، ثم استوى على العرش ، وفقاً للآية الكريمة .. ﴿ ... فى ستة أيام ثم استوى على العرش .. ﴾ ويسترسل المؤلف فى الحديث عن خلق السموات والأرض وما فيها من جبال ، ومياه .. ويفصل القول فى الجبال ويبين أن أعلاها على سطح الأرض مائة وثمان وأربعون جبلاً .. وهم منبع المياه .. وأن جبريل الأمين بأمر من الله سبحانه وتعالى حوّل سبعة من هذه الجبال إلى رماد فى قبضته .. ومن تراب هذه الجبال السبعة أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام الكعبة ، وبناها .. وفى مكانها ذكر لهذه الجبال السبعة . ويقول أن سبب تسميتها بالكعبة لأنها مربعة الشكل . ويقول وأن سبب وصفها بالحرم ، هو تعظيم من الخالق لها .. وأورد المؤلف الأحاديث الواردة فى حق الكعبة المشرفة ... ثم يستعرض ما

تعرضت له الكعبة المشرفة أثناء طوفان نوح عليه السلام .. والأسباب التي من أجلها فرض الله سبحانه وتعالى زيارة مكة والطواف بالبيت الحرام تعظيماً وإكراماً لأنه سبحانه وتعالى قد أنزله من الجنة ليكون مقام عبادة لسيدنا آدم بعد نزوله الى الأرض .. وكلف الله سبحانه وتعالى آدم بأن يجعله بيتاً معموراً وأمره هو وحواء بالطواف حوله .. وقد طاف آدم ومعه الملائكة حول البيت الحرام .. ولكن بعد الطوفان أصبح مزاراً لبني آدم ، وفرض الله عليهم الطواف حوله .. ويقول المؤلف .. أن بيت الله الحرام الذى أنزله الله من الجنة ، وأثناء الطوفان عرج إلى السماء - بأمر الله - وخلال العروج انفصل عنه جزء يسير فى حمرة الياقوت .. وحسب رواية أخرى أنه أى الجزء الذى انفصل عن البيت الحرام أثناء العروج كان كلؤلؤة بيضاء وأن سيدنا جبريل الأمين هو الذى قام بدفن هذه اللؤلؤة فى جبل أبى قبيس وأن الله سبحانه وتعالى قد أمر سيدنا ابراهيم بإعادة تعمير وإعمار بيته الحرام بعد الطوفان ، وقد تم ذلك بتعاليم من جبريل الأمين الذى أمره أن يبنى الكعبة من حجارة الجبال السبعة المحيطة .. وكان سيدنا إسماعيل آنذاك فى الثالثة من عمره المبارك .. ولكنه كان يساعد والده الحنون ، فكان يحمل الحجارة الصغيرة الخفيفة . أما سيدنا اسحاق فكان فى الثانية من عمره ، بينما كان سيدنا ابراهيم قد بلغ المائة من عمره أثناء بناء الكعبة ، وخلال هذا البناء ؛ أخرج جبريل الأمين الحجر الذى كان قد دفنه فى جبل أبى قبيس ، ووضع فى موضعه الحالي حيث زاوية الركن اليماني . ومما رواه الشيخ الترمذي ؛ عن ابن عباس رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ ؛ الحجر الأسود من الجنة ، وهو أشد بياضاً من اللبن ، فسودته خطايا بني آدم ..) وبعد أن أتم سيدنا ابراهيم بناء الكعبة تلى الآية الكريمة .. (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً) كما نزلت مشات الآيات الكريمة فى شأن البيت الشريف . وسوف تحرر فى حينها .. ^(١) .

* * *

(١) لم أحاول مناقشة ما أورده المؤلف من آراء .. حفاظاً على الجو العام الذى حاول ان يحيط به ما كتبه بهذا الصدد .

أوصاف وضع انصاب الحرم الشريف

مضى الزمان وقام جد الرسول الكريم قصي بن كلاب بتجديد البيت الحرام ، بعد سيدنا ابراهيم عليه السلام .. وظل على هذا الحال حتى بعثة النبي ﷺ . وخلال عصيان قوم قريش تهدمت بعض أجزاء مكة ، ومنها بعض أجزاء الكعبة ولكنهم خوفاً من الله تجمعوا جميعاً ، ورموا الكعبة ، وعمروها . لأنهم قد أصابهم القحط لما خربوها ... بحيث وصلت بهم الأمور أن اكلوا اللحم الميتة ، وجفت مياه زمزم .. فأدرك قوم قريش أن الله قد أنزل بهم العذاب .. فذهبوا في الحال إلي عبد المطلب .. وطلبوا منه أن يصطحبوا معهم محمداً ، وتوجهوا إلى جبل أبي قبيس للإستسقاء وطلبوا من محمد أيضاً أن يدعو معهم .. فتفضل بالقول لهم . ما لم تعمروا البيت الحرام فلن يرضى الله عنكم . فاقسموا جميعاً قائلين يا محمد .. لو أنزل علينا المطر ، وأغثنا فنعاهدك .. ونعاهد الله أن نعمر الحرم .. وتعهدوا بذلك .. فرفع المصطفى في حضور عبد المطلب يديه الكريمتين .. وقال انظروا يا آل قريش إن الغيث سينزل بعظمة الله ، وبقدرة الخالق وعظمته أمطرت السماء ، بحيث ارتوت الجبال والوديان بماء الحياة .. مما جعل سائر قبائل آل قريش يحبون محمداً وبذلوا الهمم في تجديد الكعبة المشرفة . وكان عبد المطلب آنذاك في العشرين بعد المائة من عمره .. وهو جد الحبيب المصطفى .. وكان حضرة المصطفى قد بلغ الأربعين .. ولما بلغته رسالة النبوة، كان يباشر عملية بناء مكة ، وأصبح البناء عظيماً ، وأفخم مما قام به الجد قصي .

وحين ذاك توفي عبد المطلب ، ودفن بالقرب من المعلا . وكان سلطان قريش ، وكبيرهم . وبعد النبي ﷺ قام أمير المؤمنين أبو بكر الصديق ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحضرة عثمان ، وحضرة علي ، وحضرة معاوية ، وحضرة الزبير بن العوام والحجاج يوسف الظالم ، ومن آل العباس أبو جعفر المنصور ، والمهدي العباسي والأشرف شعبان خليفة الموصل ، والملك أشرف بارسبای ، ونور الدين شهيد ، ويوسف صلاح الدين ، والسلطان برقوق ، والسلطان فرج ، والسلطان قايتبای .. لقد قاموا جميعاً بتجديد وتعمير بيت الله الحرام ، وترميم الكعبة المشرفة . ومن آل عثمان قام كل من ؛ السلطان سليم ، وسليمان خان ، والسلطان

مراد الثالث والسلطان أحمد ، والسلطان مراد الرابع فاتح بغداد ، وكذا السلطان ابراهيم .. ولقد قام كل هؤلاء الخلفاء ، وظل الله في الأرض من الملوك ، والسلاطين ، والأمراء بتوسيع مكة المكرمة ، وترميم الحرم المكي ، والكعبة المشرفة ؛ بحيث في كل مرة ، خليفاً بأن يكون بيت الفردوس .. وما زال يرمم ، ويتم تعميره .. ومن يوم إلى يوم وسيظل إلى يوم الدين بيتاً معموراً .. « عمَّره الله إلى انقراض الدوران » . وما زال إلى اليوم الصيد ، والقنص حرام داخل حدود مكة ، وما زال الحشيش والنباتات المخدرة لا تنمو بها .. وأحجارها لا تُحرق ولا تُصير جيراً .. ولا تُقَطَّع أشجارها ، وطيورها .. وحمامها ، ويمامها وقف رسول الله .. لا تروَّع .. ولا تخوَّف .. بل تحط أسراباً .. أسراباً بين الحجاج ، ولا تخاف هي من أحد ، وأحياناً تحط على رأس حاج ، وأحياناً على ظهر ، أو أكتاف آخر .. ولكن لحكمة غريبة .. فهناك الآلاف ومئات الآلاف من الحمام واليمائم ، ولكن لم يثبت أن واحدة منها قد حطت على سطح الحرم ، أو طلعت فوقه .. ولكن النسر الأبيض والذي يسمونه Cayluk فيأتني إلى سطوح مكة ، ويمكث بها .. ولكن غيره من الطيور ، وكل ذوى الجناح فلا تُحلق حتى في أجواء مكة ، بل إذا ما اقتربت تعود أدراجها .. وهذا سر من أسرار الله العجيبة ، فكان الطيور هي الأخرى تعرف شرافة مكة ، وتشرفها .. وتعرف معنى الخشوع .. ولا يجوز بأي حال من الأحوال الفسوق ، والمجدال في الحرم بل هذا حرام ، ومحرم .. ومن يجادل فيه لا يعمر .. وللحرم الشريف مجموعة من المميزات ، والخواص ؛ أولاً ؛ لو دخله كافر يُسلم ، ولو جاهر بالكفر يُقتل .. وكذا اليهودي .. وإذا ما دخل الظبي ، أو الغزال الحرم فلا يُذبح .. ولا يتعرض له أحد ...

* * *

أولاً ؛ فى الجهة الشمالية اعتباراً من منطقة وادي فاطمه ، ومن المكان المسمى عمره أربعة أميال من مكة ، وتدخل هذه المسافة فى حرم مكة المكرمة . وعلى طريق جده بعشرة أميال .. ويمتد حتى منتهى جده .. وإلى أن تصل طريق الطائف إحدى عشر ميلاً .. وعلى طريق اليمن ، وحتى منطقة « يللملم » أربعين ميلاً .. والقادمون من اليمن أو جهاتها يحرمون فى يُللملم .. وعلى طريق العراق ، وإلى أن يتم الوصول إلى المكان المسمى ، ستة أميال . وعلى حدود كل طريق .. وحيث يتوجب الإحرام قد تم إقامة بناء يُنار لمسافة ميل حتى يُدرك من منارته حدود الحرم هذه العلامات قد وضعها عدنان ، ثم أضاف هارون الرشيد ، وولده الخليفة المأمون الكثير من الآثار والأبنية الأثرية إلى حرم المدينة ، وأثناء خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي .. وعندما تم فتح مدينة طليطلة فى ديار الأندلس ، ولما توجه إليها بالف قطعة من السفن ، تغلبت على أهلها ، وجد كنز سيدنا سليمان .. وداخل العجول الذهبية ، وجد ياقوتاً أحمر ، وزمرداً ، والماساً لا حصر ، ولا عد له .. ووجد الكثير من الأزيار المليقة بالذهب الخالص .. فبنى فى دمشق الجامع الأموى ، وأقام فى مكة العديد ، والكثير من الزينات حتى أصبحت ، وكأنها جنة عدن . وفى البداية أقام من سبعة قناطير من الذهب الخالص مزاباً لمياه الرحمة « المطر » .. ولكن لثقله كان يسقط من حين لآخر . وبعده ، وفى زمن السلطان أحمد كُلف درويش محمد ظلي والد العبد الحقير بإبداع مزارب آخر . وبينما كان فى الآعتاب العالية قام والدنا بإعادة بناء مزارب ماء الرحمة ، وخلال تلك كان والدنا هو أمين الصرة ، وقد قاموا بوضع المزارب الجديد فوق سطح الكعبة الشريفة . وحتى أنا العبد الحقير قد رأيت هذا المزارب ، وكذلك رأيت ما خطه بيده الكريمة من خطوط بديعة .. ولكن لم يكن كل ذلك يصل إلى مرتبة ما بناه الوليد بن عبد الملك . وقد كان ماصنعه درة مصافة .. وقام عبد الملك بتوسيع الحرم الشريف ، وترميمه ، وأصبح طول مسجد الحرم ثلاثمائة وسبعون ذراعاً مكياً .. وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً مكياً – ولكن الحقير لم يستطع حساب الذراع ولم أقم إلا بالقياس بالخطوة . وقد سطرت ذلك سابقاً ، وإن كان حساب الذراع المكى أقل من الخطوة .. وكان ذلك الحساب مساوياً لما قمت أنا به بالخطوة تقريباً .
